الفصل الخامس

البعد الاجتماعى فى دراسة التاريخ والتراث القومى

الدعوة الإسلامية وتناقضات المجتمع المكى

يخطىء كثيراً كل من يعتقد بأن الدعوة الإسلامية بكل مضامينها الدينية والسياسية والاجتماعية قد ظهرت فى فراغ وبلا مقدمات وتراكمات سياسية واجتماعية وتاريخية عميقة الجذور ويظنون من فرط سذاجتهم وماألصقوه بها فى العصور اللاحقة من المفاهيم الأسطورية والخرافية والميتافيزيقية الفاسدة والمنحرفة فى الفهم والتفسير أنها مجرد واقعة أو مجموعة وقائع خارقة للعادة تجاوزت معها الأرض والسماء قوانينهما الطبيعية ونظامهما الكونى ليقدما لنا هذه المعجزة أو الحادثة الاستثنائية التى لن تتكرر ولن يرق العقل إلى تفسيرها وفهمها على أسس منطقية فهما عقلياً ومنطقياً ، بل ولايجوز له أن يفعل ذلك حتى لمجرد المحاولة .

فهذا الموقف الذى كانت ومازال تدور حوله مجمل الأفكار السلفية الرسمية والمحافظة المرتبطة بالسلطة دائماً من مذاهب وأحزاب سياسية ودينية مختلفة عبر مايزيد على ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً وحتى اليوم لم تسىء بذلك إلى هذه الحركة الإنسانية والتاريخية الهامة التى شكلت بمعنى ما نقطة إنطلاق مرحلة تاريخية معينة فى حياة المجتمع العربى بصفة خاصة والمجتمع الإنسانى بصفة عامة ، وتمعن فى تشويهها وتحريفها بصورة مباشرة فحسب، ولكنها قد حولتها بطريقة غير مباشرة بعد أن أفرغتها من مضمونها الاجتماعى والراديكالى الحقيقى بعد مقتل عمر وتولى عثمان إلى مجرد حادثة إستثنائية وعرضية أومايشبه الزلة والخطيئة التى يجب ألا تتكرر بالمعنى السياسى والاجتماعى ، ويكفى تحويلها إلى مجرد عقدة ذنب نفسية يستعيض بالبكاء والندم عليها حول المقابر وفوق المنابر وعلى قارعة الطريق ، كل من كان قد حلم من خلالها بإزالة وشم العبودية من ظهره ووصول رغيف الخبز الكريم إلى بطنه ،

إستعداداً للإلتقاء بها فى حياة مابعد الموت فقط بعد أن عجزت عن أن تحقق لهم ذلك فى الحياة الدنيا، أو حيل بينهم وبين تحقيق ذلك فى حياتهم على الأصح.

ولقد حاول الذين استطاعوا فرض هذه الحيلولة من الفئات والطبقات المستغلة والمسيطرة أن يمنوا غيرهم فى الآخرة بتحقيق كل ماحرموهم منه فى هذه الدنيا ، إمعاناً منهم فى المزيد من قهرهم واستغلالهم وظلمهم والقضاء على كل نزعة أو ميل لمقاومة هذا الظلم والاستغلال ، بل وجعل القبول والرضا بالأمر الواقع مقياساً للتقوى والزهد والفضيلة التى حرم منها الأغنياء والظالمون والمستغلون ، أو حرموا أنفسهم منها ، وأثروا بها الفقراء والمظلومين دونهم ، جزاهم الله خيراً !!!

وإذا كنا اليوم وبعد ما يزيد على ألف وأربعمائة عام لا نستطيع — إسوة بمن سبقونا من السلف الصالح على الأقل — أن نقبل بهذا الفهم وهذا التفسير الإقطاعى الطبقى المتخلف لهذه الحقيقة الإنسانية والتاريخية الهامة كمجرد واقعة هبطت من المجهول وردت إليه بنفس السرعة تاركة لكل المتعلقين بذكراها مجرد أمل اللقاء بها فى حياة ما بعد الموت ، فإنه يتوجب علينا أن نقدم الفهم والتفسير الاجتماعى والتاريخى البديل ، وهو الأمر الذى نرغب فى أن نبحث عن مجرد إشارات أولية له على هذا الطريق الصعب فى مجمل الصفحات المتبقية القادمة من هذا البحث ومن منظور اجتماعى وعلمى محايد .

ونظرة إجتماعية عاجلة على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والطبقية للمجتمع المكى القديم قبيل ظهور الدعوة الإسلامية تقدم لنا المدخل الأساسى الأول لتفسير وفهم ما حدث إبان ظهور الدعوة وما لقيته من الرفض والمقاومة الشرسة فى مكة والقبول والحماية فى المدينة ، ثم ما حدث بعد ذلك ابتداء بفتح مكة مروراً بوفاة الرسول وأحداث السقيفة وانتهاء بمقتل عثمان وتولى معاوية وتحويل الخلافة إلى ملك .

تناقضات المجتمع المكى القديم

فلقد كان يوجد فى مكة وما حولها من قبائل ومضارب العرب طبقة واسعة النطاق من الإقطاع العشائرى والاقتصادى التجارى الكبير ، المرتكز على أعمال المضاربة والتجارة الواسعه التى كانت تأتى من الهند إلى اليمن ومنها

تنقل شمالا بطريق البر عبر مكة إلى الشام وسواحل البحر الأبيض لتعبر البحر إلى أوربا فيما عرف برحلة الشتاء والصيف هذا من جهة ، وعلى أعمال الإغارة والحروب من قبل بعض القبائل على البعض الآخر والإستيلاء على ممتلكاتها وأراضيها وسبي أهلها كعبيد من جهة أخرى ، فيما يمكن أن نطلق عليه بالحروب الإقطاعية ، وليس مجرد الثارات القبلية والنزعات والعادات الجاهلية التى دأبت كل السير والتفسيرات السلفية على تعليل تلك الحروب إما فى ضوء مفاهيم أدبية ولغوية مجردة أو تحت دوافع دينية وأخلاقية مثالية لا تقوى على الاحتكام إلى العقل وقوانين الواقع ، فكتب السير للأسف — كما يقول أحمد عباس صالح — لا تحاول أن تتعمق أسباب الصراع إلى أبعد من المظاهر الدينية ، ولكنها على كل حال تقدم لنا المادة التى نستطيع منها أن نضع أيدينا على الأسباب المادية فى الصراع (١) .

فأنا لا أستطيع اليوم أن أقبل أبداً وفقاً للمفهوم الأدبى واللغوى بأن قصة الحرب التى دامت بين عبس وذبيان مدة طويلة والتى عرفت بحرب (داحس والغبراء) ودونت عنها عشرات ومئات القصائد الشعرية والقصص الأسطورية بأن سببها الوحيد كانت هى تلك الفكرة الساذجة عن ارتكاب خيانة أو خدعة أثناء منافسة سباق حصانين أحدهما لقبيلة عبس والآخر لذبيان وأسمها « داحس والغبراء » وذلك بقيام أحد المتنافسين بدق مسمار فى حافر حصان الآخر قبل بدأ السبق على حين غرة وتسبب فى هزيمته ، فقامت الحرب إباها بمجرد اكتشاف هذه الخدعة ، لأنه على افتراض أن هذه الحرب قد حدثت بالفعل وهو الأرجح فإن السبب المذكور لنشوبها غير مقنع ويتميز بالسذاجة المتناهية التى تجعل من واقعة الحرب الحقيقية مجرد فكرة أسطورية بحتة لا تختلف عن القول بأن حصاة صغيرة قد ألقيت فى البحر وتسببت فى تحريك مياهه وتحول إلى أمواج وعواصف صاخبة تحطم السفن وتكتسح اليابسة .

وبجانب ما ذكر عن حرب داحس والغبراء قيل ما هو أكثر منه ومن نفس المنظور الأدبى واللغوى الفولكلورى المجرد عن حرب « البسوس » تلك

---

(١) أحمد عباس صالح : اليمين واليسار فى الإسلام ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت سنة ١٩٧٢ ، ص ٥٣ .

المرأة اليمنية الماكرة التى قدمت من الجنوب واستطاعت بواسطة ناقة جرباء أن تثير حربا طاحنة بين عرب الشمال لمدة سنين طويلة قضت على الحرث والنسل والأخضر واليابس كما تروى أساطير وحكايات « الزير سالم بن ربيعة » البطل الأول لهذه الحرب ، فإذا ما افترض بأن واقعة هذه الحرب قد حدثت أيضاً وهو الأرجح فإن السبب المتميز بالسذاجة أيضاً يحيل الواقعة الاجتماعية والتاريخية (الحرب) إلى واقعة أسطورية تماماً إذا ما أخذ به كعلة وحيدة للتفسير العقلى والمنطقى والعلمى أيضاً ، وهى قضية تساوى بالضبط الأسطورة القائلة بأن الفأر هو الذى هدم سد مأرب التى لو أخذ بها كعلة وحيدة لتفسير الحدث تفسيراً تاريخياً وعقلياً لوجب التسليم بأن السد هو مجرد فأر آخر أو حيوان أو شىء مادى أقل حجما وقوة من الفأر الذى أستطاع تهديمه (١) .

ذلك أنه إذا كان هناك حقيقة من الأسبات والتناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمتغيرات التاريخية ما يقوى على تقديم التفسير الحقيقى المتكامل لتهدم سد مأرب بدلا من مجرد الرمز الأدبى والفولكلورى لهذه القضية المتمثل فى « الفأر المسكين » فإن هناك من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضاً ما يقوى بنفس الدرجة على تفسير واقعة حرب داحس والغبراء وحرب البسوس وغيرها من وقائع وأحداث وتناقضات المجتمع المكى القديم بدلا من مجرد مسمار دق فى حافر خيل أو ناقة جرباء جىء بها من اليمن إلى مضارب ربيعة وبنو عمومتهم بنى مرة ، ذلك أنه إذا كنا اليوم لا نعرف عن مثل هذه الأحداث إلا مثل هذه الرموز الأسطورية والفلكلورية المجردة فإنه يتوجب علينا فى ضوء مناهج العقل والعلم الاجتماعى الحديث أن نعيد النظر فى ذلك جذرياً ونبحث عن الأسباب الحقيقية التى نستطيع من خلالها أن نقوى على كتابة وقراءة تاريخنا العربى والإسلامى كتابة وقراءة علمية وجدلية صحيحة، وهو الأمر الذى نحاول من خلال هذا الجهد أن نبحث عن موضع قدم جديدة على هذا الطريق المقفول حتى الآن .

---

(١) راجع حمود العودى : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء ١٩٨٠ ، ص ٢٧ إلى ٢٩ .

وإذا كانت وقائع حرب داحس والغبراء وحرب البسوس وغيرها من الأحداث التى شهدها المجتمع المكى القديم فى مرحلة مبكرة لا تقدم لنا إلا القليل من مؤشرات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتناقضاتها من خلال ما تنقله إلينا أدبيات اللغة الشعرية والقصصية الفولكلورية ، فإن مجمل الوقائع التى دارت إبان ظهور الدعوة الإسلامية وما قبلها بقليل وما بعدها أيضاً تستطيع أن تقدم لنا من المؤشرات والدلالات الاقتصادية والاجتماعية ما هو أكثر وضوحاً وتيسيراً للقدرة على تفسير الوقائع والأحداث التاريخية تفسيراً إجتماعيا وتاريخياً واقتصادياً صحيحاً ، فسوق عكاض لم تكن سوقاً ومنتدأ للقصائد الشعرية وحدها كما يظن الكثيرون ولكنها كانت قبل ذلك وبعده وأهم منه عبارة عن « بورصة » تجارية ضخمة تعقد سنوياً لإبرام العقود وإجراء المضاربات وأعمال السمسرة والمراباة التجارية لطبقة واسعة من التجار المنتشرين فى أنحاء الجزيرة العربية ، فلقد كان وجود هذه السوق هو عبارة عن نقطة ارتكاز لما عرف برحلة الشتاء والصيف تبدأ منها وتنهى إليها . فالنظام القبلى — كما يقول أحمد عباس صالح — لم يكن هو المحرك الأساسى للصراعات بين القوى المختلفة فى مكة ، إنما المحرك الحقيقى هو الثروة والسلطة . وقيمة الفرد تتحدد لا بتبعيته لقبيلة قوية ، بل بما يملك من مال وما يحوز من سلطة (١).

تناقضات المجتمع الجديد

ولقد كان موقف هذه الطبقة فى مجتمع المكى بالذات من الدعوة الإسلاميه الجديدة منذ لحظاتها الأولى بمفهومها الأصلاحى المعارض والرافض للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى ظل سيطرة هذه الطبقة هو أكثر الدلالات التاريخية وضوحا ، فلقد كانت الدعوة وصاحبها محكومة إلى حد كبير بطبيعة المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية السائدة وانعكاسا وتعبيراً عنها بطريقة ومفهوم معين يتعارض ومفاهيم تلك الطبقة التجارية والأرستقراطية السائدة فى ذلك المجتمع إلى حد كبير ، ولم تكن مجرد تعبير عن مفاهيم دينية وغيبية مثالية بحتة منبثقة من مفاهيم مجردة ومنفصلة عن الواقع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى السائد .

---

(١) أحمد عباس صالح : اليمين واليسار فى الإسلام ، ص ٤١ .

لقد كانت هى التعبير المباشر إلى حد ما وبشكل ما عن طبقة اجتماعية مسحوقة فى المجتمع من عبيد وفقراء وصعاليك . . . الخ . فى مواجهة طبقة إقطاعية عشائرية وأرستقراطية تجارية ممعنة فى الظلم والاستغلال والقهر والمفاسد الأخلاقية والاجتماعية ، بدءا بأعمال الغزو والإغارة والنهب والقمار والمراباةوالظلم ،مروراً بأعمال السبى وتجارة الرق وأنتهاءا بقتل ووأد الأطفال من الإناث . . الخ[١] . وذلك فى مقابل المساواة والكف عن المفاسد الاجتماعية والظلم الاقتصادى والعمل على تحقيق فكرة الأخوة الإنسانية والعدل الاجتماعى التى أتت بها دعوة محمد .

فلم يكن الخلاف والعداء والمقاومة الشرسة التى لقيها محمد وأتباعة من قبل الأرستقراطيات السياسية والاقتصادية فى المجتمع المكى القديم هو عداء وخلاف دينى بقدر ماأنه كان خلافاً وتناقضاً اجتماعياً وطبقياً فى الأساس،ذلك أن أكثر الذين وقفوا من الدعوة الإسلامية — كما يقول أحمد عباس صالح — موقفاً عدائياً إلى أقصى درجه من العداء هم الأغنياء سواء من أمية أو من هاشم أو من غيرها من القبائل ، وقد ضمهم تحالف قوى أساسه المصلحة الاقتصادية وحدها ضد الدين الجديد الذى كان يهدد مصالحهم[٢] . ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية انتشار مبادئ الدعوة فى أوساط الفئات والطبقات المقهورة فى المجتمع من العبيد والموالى وفقراء وصعاليك المجتمع المكى ، وإمعان الأرستقراطيات السياسية والاقتصادية للطبقة المسيطرة من أمية وغيرها فى مقاومة الدعوة ورفضها حرصاً على مصالحهم ونكاية فى محمد وترفعاً عمن تبعه من أراذل الناس وما يطمح إليه من المساواة بين هؤلاء « الأراذل » والغلمان والعبيد وبين سادات قريش وبيوتاتها العريقة .

هذا الأمر الذى لا تخفى وقائع التدليل عليه سواء من خلال ما تضمنه القرآن أو روته الوقائع التاريخية لبداية الدعوة وتطورها، والتى غالباً ما تروى

---

(١) راجع كتابنا : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، دراسة تطبيقية عن المجتمع اليمنى ، ص ٣٥ إلى ٣٨ .

(٢) أحمد عباس صالح : اليمين واليسار فى الإسلام ، ص ٤١ .

كوقائع وحوادث تاريخية بحتة وعابرة دون أن تختزل منها الحقائق الاجتماعية التى من هذا النوع الذى نتحدث عنه هنا وذات الأهمية القصوى .

وقس على ذلك ما يمكن استخلاصه من تقبل مجتمع المدينة لفكرة الدعوة وصاحبها بدون عوائق تذكر تحت تأثير سببين رئيسيين : أحدهما طبيعة التكوين الاجتماعى لمجتمع المدينه كقبائل وجماعات مهاجرة وقادمة أصلا من جنوب الجزيرة « اليمن » تتميز بمضامين اجتماعية وحضارية ونفسية معينة سبق تحليلها فى الفصول السابقة من هذا البحث ، وتفصل بينهم وبين أرستقراطيات وبيوتات مكة من الناحية الاقتصادية والسياسية مسافات كبيرة ، كمركز احتكار تجارى وسياسى مؤثر على مجمل الجماعات الأخرى خارج مكه فى المدينة وغيرها ، حيث كانت مبادئ الدعوة هى أقرب إلى ظروفهم الاقتصادية والإجتماعية والنفسية . وحيث وجدوا فى هذه الدعوة فرصة لتأكيد وجودهم سياسياً واجتماعياً بصورة أكثر فاعلية من جهة ومنطلقا لمنافسة المجتمع المكى ومحاولة لكسر احتكاراته السياسية والاقتصادية ، من جهة أخرى ، حتى واتتهم فرصة تحقيق حلمهم يوم الفتح بالفعل ، حيث حسم الأمر نسبياً فى صالح الدعوة الجديدة ومن تعلق بها من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة بالذات الذين خاضوا معركة الفتح بقيادة « سعد بن عبادة الانصارى » (فتح مكة) وأرادوا يومها أن يحققوا انتصاراً سياسياً واجتماعيا وتاريخيا عميق الدلالة ، ويعبر عن التناقضات القديمة بين المجتمع المكى والمجتمع المدنى ، وليس مجرد انتصار للدعوة الإسلامية بمفهومها الدينى وحده .

فالمتتبع للأحداث برؤية إجتماعية وعلمية مجردة منذ بيعة الأنصار الأولى والثانية لمحمد ، ثم إيوائه ونصرته هو وأصحابه من مهاجرة مكة ، وحتى يوم الفتح لا يستطيع أن يخرج بدون التسليم بهذه الحقيقة ، حقيقة الصراع والتناقض بين قاعدة المجتمع المكى ، وفقرائه وعبيده ومعهم الأنصار فى المدينة من جهة ، وطبقات وأرستقراطيات قريش فى مكة وغيرها من جهة أخرى ، فليس بالشاذ إذن — كما يقول الدكتور محمد عماره — أن يقع الخلاف بين قريش والأنصار بل لقد كان الطبيعى والمنتظر أن يقع هذا الخلاف . .

فقريش كانت تشعر بأن الأنصار بعد الهجرة و الاسلام يحاولون أن يحتلوا بين العرب مكانتها هى قبل الإسلام ، ومديتهم يثرب قد انتزعت أهمية العاصمة من مكة ، ناهيك عن دخول الأنصار فى جيش الفتح على قريش فى عقر دارها[١] .

فلقد كانت قيادة جيش الفتح فى ذلك اليوم بيد سعد بن عبادة الأنصارى ، والذى بالرغم من أن الرسول قد أمر بأن لايبدأ المسلمون بقتال إلا أن سعد بن عبادة — كما يقول الدكتور محمد عمارة أيضا — يبدو أنه كان يريد أن يستأصل شأفه القرشيين الذين لم يدخلوا بعد فى الإسلام ، وهم الذين سبق وأن قبضوا عليه عند رجوعه ليثرب من بيعة العقبة وعادوا به لمكه وعذبوه فجعلوا يده إلى عنقه بنسعه ، وجعلوا يضربونه ويجرون شعرة وكان ذا جمه[٢] .

وحينما مر سعد بن عبادة يوم الفتح بأبى سفيان زعيم قريش ، نظر إليه وقال : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا !! ولما سمع أبو سفيان ذلك هرع إلى الرسول وناداه : يارسول الله أمرت بقتل قومك ؟ وروى له ما قال سعد ، ثم ذهب العباس بن عبد المطلب إلى الرسول وقال : يارسول الله هلكت قريش ، لا قريش بعد اليوم ، إن سعد بن عبادة قال كذا وكذا ، وأنه ضيق على قريش ولابد أن يستأصلهم ! كما ذهب عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف إلى الرسول فقالا له : يارسول الله ، والله ما نأمن سعداً أن تكون منه فى قريش صولة[٣] ! .

وهكذا نلاحظ بوضوح التقاء الروابط الدموية والارستقراطية القرشية فى ذلك اليوم سواء من كان منهم قد أسلم أو ممن لا يزال على الكفر فى مواجهة منافسى الأمس ومتغلبى اليوم من المهاجرين والأنصار وسواد

---

(١) د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت — الطبعة الأولى عام ١٩٧٧ ، ص ٧٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٥ ، وأنظر فى ذلك أيضاً نهاية الأرب ج ١ ص ٣١٧ .

(٣) د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية ص ٧٥ و ٧٦ .

شعب مكة نفسها والجزيرة بأسرها ، هذه الروابط التى لم يستطع الرسول نفسه أن يتجاهلها ، حينما هدأ من روع أبى سفيان وغيره قائلا : يا أباسفيان اليوم يوم المرحمة اليوم أعز الله فيه قريشا . وذلك فيما يشبه التناقض لما قالة قائد فتحه سعد الذى أمر بعزله[١] . ومع ذلك فقد ظل الائتلاف القوى بين الأنصار والمهاجرين فى السلطة وتنحية وتقليص كل المصالح المادية والمعنوية لأرستقراطيات مكة القديمة وغيرها هو المقوم الأساسى الأول لبناء المجتمع الجديد ودولته الجديدة التى ظلت تتخذ من المدينة عاصمة لها بدلا من مكة رغم ، فتحها كأحد المؤشرات والدلالات المؤكدة لكل ما سبق رغم أهمية مكة الدينية .

تحالف الأنصار والمهاجرين : من نقطة الضعف حتى التصفية

وبعد وفاة الرسول جاءت أحداث السقيفة كأول نقطة ضعف غير مباشرة فى صف التحالف القوى للمهاجرين والأنصار بتنحية المهاجرين للأنصار وإنفرادهم بالسلطة ، كما بداء مجرى الأحداث من جديد يتحول بصورة مباشرة فى الاتجاه الآخر بعد مقتل عمر وتولى عثمان ، وحسمها بصورة نهائية فى صالح الخط المضاد فى عهد معاوية ، خط الأرستقراطيات السياسية والاقتصادية والطبقية القديمة فى البيت الأموى وغيره من بيوتات مكة القديمة وطبقاتها لمسيطرة من جديد .

فاجتماع السقيفة مثلا وماحدث فيه من خلافات بعد وفاة الرسول مباشرة وما انتهى إليه من اختيار أبى بكر الصديق خليفة للرسول (صلعم) له دلالة سياسية واجتماعية واقتصادية لاتقل أهمية عن دلالته الدينية ، فإذا ماعدنا إلى ظروف وأوضاع ماقبل موقف السقيفة بقليل عندما بدأت الدعوة الإسلامية وطوال مدة انتشارها فى عهد الرسول وما رافق كل ذلك من صراعات وحروب ومقاومة شرسة من قبل بيوتات مكة الكبيرة وقريش بعامة لوجدنا بأن النظام القبلى لم يكن هو المحرك الأساسى الوحيد للصراعات بين القوى المختلفة فى مكة قبل بدء الدعوة وبعد بدئها . ولكن المحرك الحقيقى — كما يؤكد أحمد عباس صالح — هو الثروة والسلطة فقيمة الفرد كانت تتحدد

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

لابتبعيته لقبيلة قوية بل بما يملكه من مال ومايحوز من سلطة ، وعند ظهور الدعوة بمفهومها الإجتماعى المعارض للأوضاع السائدة كان أكثر الذين وقفوا منها موقفاً عدائياً إلى أقصى درجة من العداء هم الأغنياء سواء من أمية أو من هاشم أو غيرها من القبائل ، وقد ضمهم تحالف قوى أساسه المصلحة الإقتصادية وحدها ضد الدين الجديد الذى جاء لتهديد هذه المصالح[١] . وبمجرد وفاة الرسول بدأ أصحاب هذه المصالح المفقودة يعدون لاستعادتها ، وكانت أول خطوة تحققت فى اجتماع السقيفة بعد وفاة الرسول مباشرة هى شق التحالف الثورى النقى والمتماسك للمهاجرين والأنصار أصحاب المصلحة الحقيقية فى الدعوة وحملتها الأقوياء بإثارة سوء التفاهم فيما بينهم حول الخلافة والسلطة حيث انتهى الأمر إلى تقليص دور الأنصار بزعامة سعد بن عبادة فى السلطة ، لكنها مع ذلك لم تخرج من دائرة هذه الكلتة المتماسكة القوية ، حيث ربطت بأفضل من فى قريش من المهاجرين وأقرب الناس إلى محمد وهو أبى بكر الصديق ومن بعده عمر بن الخطاب الذى لم يكن يقل عنه تعبيراً وتمسكاً بجوهر الدعوة ومثلها الدينية والاجتماعية النقية ، وبمجىء عثمان وهو من أغنى أغنياء البيت الأموى بدأ جناح الاقطاع والبرجوازية الأموية القديمة ينقض على السلطة مباشرة ويستعيد امتيازاته الاقتصادية الضخمة على يد عثمان الذى لم يكن مقتله مجرد خطيئة أو فتنة دينية بحتة كما يفسرها الكثيرون بسذاجة ، بل إن له دلالة اجتماعية واقتصادية وطبقية مرتبطة بممارسة الظلم من قبل ولاته فى الأقاليم من البيت الأموى المقرب إليه ، واطلاق أيديهم لامتلاك الضياع والعقارات الخاصة التى كانت محضورة عليهم وعلى غيرهم فى عهد عمر ومن قبله ، والتصرف فى أموال الدولة ومواطنها كيف شاءوا[٢] ودلالة ثورة وطنية ضد هذا الظلم امتدت من مصر والكوفة بالعراق إلى المدينة مقر الخلافة وعاصمتها ، فمنذ عهد عثمان كما يقول « الدكتور أدونيس » بدء التناقض بين قوى المجتمع العربى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج القائمة أو علاقات الملكية ، إنه بتعبير آخر بداية تاريخ الصراع بين

---

(١) أحمد عباس صالح : اليمين واليسار فى الإسلام ١ ص ٣١ إلى ٤١ .

(٢) راجع د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلاميه ، ص ٩٤ إلى ٩٨ .

الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة .(١)

فقد تغيرت إستراتيجية القوى الإقطاعية والرجعية من مقاومة الدعوة فى عهد الرسول إلى تقليص نفوذ جانب من أنصارها الحقيقيين الأقوياء من الأنصار بعد وفاته مباشرة فى اجتماع السقيفة ، والإنقضاض عليها فى عهد عثمان وتصفية الجانب الآخر نهائياً من المهاجرين ، حيث بدأت عملية ممارسة الإضطهاد ضد عناصر صدر الدعوة الإسلامية الأقوياء أو مايمكن تسميته - كما يرى أحمد عباس صالح - باليسار الإسلامى الثورى ممثلا فى على بن أبى طالب (رأس اليسار) وعبدالله بن مسعود وأبو ذر الغفارى وعمار بن ياسر وغيرهم ، فعبدالله ابن مسعود يعزل من وظيفته كخازن لبيت المال فى الكوفة ويهان لأنه طالب بوفاء حق لبيت المال على أحد قرابة عثمان ، وأبو ذر الغفارى ينفى فى صحراء « الربذة » ويحرم من عطائه حتى إذا ماجاءه الموت لم تجد زوجته كفنا تكفنه حتى تصدق عليه رجل بردائه فتكفن به . وذلك لمقاومته تشريعات الملكية المطلقة التى صدرت فى عهد عثمان واعتباره أن أموال بيت المال هى مال المسلمين وليس للخليفة أن يتصرف فيه كيف يشاء ، بل كما يشاء المسلمون . وذلك فى مقابل الإتجاه المضاد والمسيطر على السلطة لعثمان ومعه معاوية الذى يرى أن المال مال الله وبالتالى فإن للخليفة أن يتصرف فيه كيف يشاء لأنه خليفة الله ، وقد أهين عمار بن ياسر لدفاعه عن أبى ذر ، وحينما تدخل على محتجاً قال له عثمان: ماأنت بأفضل من عمار وماأنت أقل إستحقاقاً للنفى من أبى ذر(٢) .

ولقد كانت قصة رحيل أهل مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة والاشتراك فى محاصرة عثمان وقتله بعد أن عرضوا عليه مطالبهم وشكاويهم أكثر من مرة دون جدوى هو بداية الصراع الدموى والفكرى والطبقى لكلا التيارين على طول المراحل التالية من التاريخ الإسلامى ، فحروب الشام بين على ومعاوية لم تكن لمجرد المطالبة من على بشرعية الخلافة دينياً بدلا من معاوية بل إن القضية

---

(١) د . أدونيس : الثابت والمتحول ، بحث فى الابداع والاتباع عند العرب ، الجزء الثانى الطبعة الأولى ١٩٧٧ ، دار العودة بيروت ، ص ٦٣ .

(٢) أحمد عباس صالح : اليمين واليسار فى الإسلام ، ص ٦٦ ، ٦٩ ، ٨١ ، ٨٢ .

أصول إقتصادية وسياسية بحتة مرتبطة برفض عودة البيت الأموى إلى السلطة وتحويل نظام الدولة الإسلامية من نظام ملكى جماعى أساسه العدل والديمقراطية والمشورة والمساواة بين أغنياء الناس وفقرائهم إلى نظام ديكتاتورى ملكى وراثى يستعيد فيه البيت الأموى الإقطاعى والتجارى وكل من ينتمى إلى طبقته كل امتيازاته غير المشروعة اجتماعياً ودينياً ، والتى كان يتمتع بها فى المجتمع المكى القديم وتقلصت بعد فتح مكة ، والأمر ينطبق كذلك على مراحل التاريخ الإسلامى اللاحقة وظهور الفرق والأحزاب والأفكار المتعددة التى سيأتى الحديث عنها ، فهى فى مجموعها تشكل فى الأساس نماذج وعينات ومؤشرات لقضايا إجتماعية واقتصادية وطبقية فى المقام الأول رغم المظلة الدينية الشفافة التى ظلت تستظل بها جميعاً وما لحق بجونها الحسنة من التنكيل والتشويه كما سنرى حالا من خلال الفقرات الآتية :

إتجاهات اليمين واليسار فى التاريخ والتراث

بعد عهد صدر الإسلام الذهبى ، وبالتحديد بانتهاء خلافة عمر بن الخطاب وبدء خلافة عثمان وعودة البيت الأموى الإرستقراطى إلى السلطة بصورة نهائية فى عهد معاوية إستعادت كل الطبقات البرجوازية والإرستقراطية القرشية فى المجتمع المكى القديم — وفى مقدمتها البيت الأموى — كل مصالحها الإقتصادية والسياسية والاجتماعية التى فقدتها بعد فتح مكة ، والتى كانت بسببها تناصب الدعوة الإسلامية وصاحبها العداء والحقد والكراهية قبل الفتح . . بعد تلك الفترة الذهبية المشار إليها وبظهور هذه التحولات السياسية والإقتصادية ظهر تياران رئيسيان فى نطاق الدولة الإسلامية طوال تاريخها اللاحق تقريبا ، من أموى وعباسى وفاطمى ، وضم هذان التياران فى نطاقهما مختلف الإتجاهات السياسية والإجتماعية المتعارضة تقريباً . . وهما تيار رسمى برجوازى وأرستقراطى قوى فى بدايته ، إقطاعى ورجعى متخلف وفى نهايته ، تمثل فى نماذج السلطة الأموية والعباسية والفاطمية المشار إليها ، وحتى عهد المماليك والأتراك ، ومناصريهم وشركائهم فى المصلحة أو التبعية خارج السلطة

من أحزاب وفرق ومذاهب كالأشعرية والجبرية والمرجئة .(١) ثم مذاهب أهل السنة والحديث وهم أكثر اعتدالا إلى حد ما، من مالكية وحنبلية وشافعية وحنفية وغيرهم من فلاسفة هذا الإتجاه والمحدثين عنه بتعصب ، والذين يمثل الإمام الغزالى بكل أفكاره وفلسفته الرافضة للفلسفة والعقل نموذجه الحى والبارز .

أما التيار الثانى فهو تيار ثورى شعبى وعلمانى معارض ، من خارج السلطة للتيار السابق ومتناقض معه بحكم تناقض المصالح الإقتصادية والسياسية وطبيعة التركيب الطبقى والاجتماعى والإقتصادى لهذا التيار التى تختلف وتتناقض مع الطرف الآخر .

وقد تمثل هذا التيار فى فرق وأحزاب الشيعة بمختلف اتجاهاتهم اللبرالية والثورية المبكرة رغم الإجتهادات المشوهة والمنحرفة لمعظم فرقهم فيما بعد حتى اليوم ، كما تمثل فى قمم الفكر الإجتماعى والسياسى والعقلى والفلسفى الناضج للمعتزلة والخوارج والقرامطة والإسماعيلية القديمة وحركات الزنج وعلوج الأرض وغيرهم من فلاسفة ومفكرى هذا التيار الذين يأتى على رأسهم ابن

---

(١) الأشعرية هى الفرقة أو الجماعة السياسية التى أوصلت معاوية إلى الحكم من خلال قضية التحكيم المشهورة بينه وبين على ، والتى تزعمها أبو موسى الأشعرى وهو يمنى الأصل والمنبت وفد من منطقة زبيد إلى الرسول على رأس جماعة كبيرة للدخول فى الإسلام ، وهو الذى أبرم الحكم بين على ومعاوية لصالح معاوية فى قضية التحكيم المشهورة . والجبرية هى جماعة أو حزب سياسى يرتدى ثوباً دينياً ، أقامت فلسفتها السياسية واالدينية على أساس أن الإنسان مجبر على ما يرتكبه من أفعال ، لأن الله هو الذى خلق الإنسان وخلق أفعاله وبالتالى فان معاقبة الإنسان على مايفعل أو محاسبته عليها ليس من العدل فى شىء . وقد كان الهدف الجوهرى من وراء هذا الحزب وفلسفته هو تبرير ماقام به البيت الأموى من عمليات إغتصاب للسلطة بالقوة وإفراغها من مضمونها الدينى والشورى الأصيل، وتحويلها إلى ملك ووراثة ، ثم هو تبرير لأفعال وتصرفات أفراد السلطة والطبقة الحاكمة واتجاهها نحو الملذات والترف وجمع الأموال والضياع الخاصة وممارسة الظلم والحرمان والقهر والقسوة والتسلط الفردى . مما يتنافى مع جوهر الدعوة الإسلامية . والمرجئة هو مذهب لايختلف عن سابقه إلا من حيث أن الإنسان إذا كان ولابد من محاسبته على أفعاله فهذا ليس من مهمة البشر فى الحياة الدنيا ، والأصح هو أن يرجأ هذا الحساب والعقاب إلى يوم القيامة ليتولى الله هذا الأمر ، والله أرحم بعباده وأولى بمحاسبتهم ، وهو اتجاه لايخرج فى جوهره السياسى والاجتماعى عن الاتجاه السابق .

رشيد وابن سينا والكندى وابن خلدون والراوندى والجاحظ وغيرهم ممن أسهموا بشكل ملحوظ فى توطيد الأسس الأولى للحضارة العربية والأوربية الحديثة ولا تزال أفكارهم وتجاربهم الاجتماعية والسياسية تستجيب بنجاح أكثر وأكثر لمنطق العقل والتقدم الاجتماعى والانسانى حتى اليوم ، ومايزال كل شيء تقريبا فى واقعنا العربى والاسلامى القائم فى موقع متخلف جداً بالنسبة لهم ومايسيطر على هذا الواقع من ألوان ومفاهيم وأشكال التخلف والانحطاط الفكرى والعقلى (١).

ولقد كان فى تقديرنا إنتصار وتغلب التيار الأول بكل مفاهيمه وأبعاده فى مقابل انهزام وانحسار التيار الآخر أمام ألوان البطش والتنكيل والتشويه الذى مارسه ضده التيار الأول عبر مراحل التاريخ العربى والاسلامى كله واضطراره إلى الضمور والانطواء حتى اليوم ، هومن أهم عوامل التقهقر الحضارى للأمة العربية والاسلامية على الاطلاق، فبهزيمة وقتل العقل والحرية الانسانية تنهزم الحضارة ، وبانتصار النقل والتقليد المشوه والمفاهيم اللاعقلية والخرافية والأسطورية من أجل خدمة أغراض ومصالح طبقية وسياسية محدودة ، حتما تسقط الحضارة القادرة على السير بحياة البشر نحو الإرتقاء والتقدم أكثر فأكثر ، والعكس بالعكس صحيح . .

وهـذا هو المدخل الإجتماعى فى دراسة التاريخ والتراث الحضارى العـربى الذى لم يحظ بعـد بأى اهتمام جاد يذكر من قبل علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا العرب وغيرهم باعتبار أنه يشكل الخلفية والمنطلق التاريخى

---

(١) إن أفضل من كتب حتى الآن عن هذه الجوانب بصفة عامة من الباحثين المحدثين برؤية معاصرة هو الدكتور محمود إسماعيل فى كتابه الحركات السرية فى الإسلام نشر مؤسسة روزاليوسف مايو ١٩٧٣ ، وأحمد عباس صالح فى كتابه اليمين واليسار فى الإسلام نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٢ ، والدكتور محمد عمارة فى كتابه المعتزلة ومشكلة الحرية والانسانية ، الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٧٢ ، والدكتور أدونيس فى كتابه الثابت والمحول من جزئين ، الناشر دار العودة بيروت ١٩٧٧ وبندلى جوزى فى كتابه من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ، الناشر دار الروائع بيروت « لم يحدد إسم المترجم ولا تاريخ النشر وهو كتاب حديث عموماً »

الهام الذى سيتيح لنا إمكانية إقامة علم اجتماع عربى ونظرية إجتماعية عربية متكاملة نقرأ من خلالها التاريخ ونفسره تفسيراً علمياً صحيحاً يساعدنا على حل مشاكل الحاضر وتحديد ملامح المستقبل المنشود .

ويتمثل كل ذلك فيما أفرزته الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبقية فى إطار الدولة الإسلامية من تناقضات وصراعات ووقائع وأحداث اجتماعية وسياسية بارزة ، عكست فى مجملها طبيعة التركيب الإقتصادى والإجتماعى للمجتمع ، أكثر من كونها إنعكاس للخلافات الدينية والسياسية التى تقمصتها فى الظاهر ، وشكلت بذلك التاريخ الإقتصادى والإجتماعى والسياسى الحقيقى للمجتمع العربى وتطوره بالمفهوم والمنهج العلمى والجدلى المترابط الحديث الذى لم يكشف عنه النقاب أو يدرس بجدية وفقاً لهذا المفهوم حتى الآن .

فلو قمنا بتحليل الخلافات والصراعات المريرة حول فكرة الخلافة الإسلامية ومارتبط بها من الفتاوى الدينية والإتجاهات والمذاهب والفرق ذات الطابع الدينى من الناحية الشكلية كالأشعرية والخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة والإسماعيلية والقرامطة وإخوان الصفاء وغير ذلك[١] لوجدنا بأنها قد أبطنت وارتكزت على مواقف وأبعاد إقتصادية واجتماعية وطبقية بالدرجة الأولى ، حيث يذكر المستشرق بندلى جوزى قوله : عن إخوان الصفا وهى جماعة إخوة قرمطية : بأنهم كانوا أول من قال بوجوب تسخير « العلم والعمل » لسعادة الإنسان وهو ماقال به بعد مئات السنين « لاسال وماركس» وما أصبح اليوم شعار حكومة البلاشفة فى روسيا ، وأنها كانت أخوة قرمطية أسست فى البصرة لنشر المبادىء الإسماعيلية والسعى وراء تحقيقها بالطرق السلمية

---

(١) إقرأ بتفصيل أكثر عن هذه الفرق برؤية عصرية موضوعية للدكتور محمود إسماعيل فى كتابة الحركات السرية فى الاسلام مؤسسة روز اليوسف مايو ١٩٧٣ وأحمد عباس صالح « اليمين واليسار فى الاسلام » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢ ، ومحمد عمارة « المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية » بيروت ١٩٧٢ وأدونيس « الثابت والمتحول» دار العودة بيروت من جزئين الطبعة الأولى ١٩٧٧ م .

العقلية[١] . وبينما كانت « الأشعرية » تمثل أقصى اليمين المتطرف كان الخوارج يمثلون الجانب المضاد والشيعة اليسار المعتدل والمرجئة حزب الوسط المتذبذب ، وكان المعتزلة رواد النظر العقلى والفلسفى [٢] ، وهى بذلك تشكل فى جوهرها ومضمونها مواقف وخلافات سياسية وتناقضات اقتصادية واجتماعية بين الأقلية والأغلبية من ناحية ، وبين من يقفون على قمة السلطة وبين المعارضين لها من خارجها ، ويتعرضون بسبب ذلك لأنواع البطش والقمع والمصادرة الفكرية من ناحية أخرى .

كما تشكل هذه الفرق والمذاهب والأحزاب فى حقيقتها التجسيد الفعلى والعملى لمظاهر الصراع الطبقى والأيديولوجى والتعصب القومى والنزعات الأسرية والعشائرية والقبلية ، التى كان يتضمنها التركيب الإجتماعى شبه الإقطاعى لمجتمع ماقبل الإسلام ومابعده ، إضافة إلى طبيعة المصالح الإقتصادية والإجتماعية المتباينة بطبيعة الحال ، حيث يؤكد الدكتور محمود إسماعيل قوله : « بأن ظهور حزب الخوارج هو تعبير عن تناقضات إقتصادية واجتماعية إكتسبت طابعاً دينياً نتيجة تفجير تلك المتناقضات من خلال مشكلة الإمامة ، كما يؤكد أيضاً بأن كل الخلافات التى جرت حول الإمامة تعكس فى الأساس صراعا طبقياً واجتماعياً واقتصادياً[٣] فكل هذه الظواهر التى ظلت تغطى كل مراحل التاريخ الإسلامى تقريباً ومايزال بعضها حتى اليوم قد برزت فى ثوب وحلة دينية ، وأضمرت مواقف وأهداف سياسية انعكاسا وتعبيراً عن أسس وأبعاد اجتماعية واقتصادية فى بناء وتركيب المجتمع نفسه ، ولقد كتب للشكل أو الإتجاه

---

(١) بندلى جوذى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ دار الروائع بيروت (لم يحدد إسم المترجم ولا تاريخ النشر) وينظر فى هذا أيضاً كتاب التفكير الاجتماعى للدكتور أحمد الخشاب ص ٢١٣ ، دار المعارف ١٩٧٠ م .

(٢) د . محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام مؤسسة روزاليوسف مايو ١٩٧٣ ص ٤٣ ، ٤٤ ، وأنظر فى ذلك أيضاً الدكتور أدونيس : الثابت والمتحول جزء ثانى ص٨٥ (مرجع سابق) .

(٣) د . أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعى دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية ص ٢٠٠ دار المعارف ١٩٧٠ ، وينظر فى ذلك أيضا المرجع السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

الدينى والسياسى الظهور والتطور والبروز باستمرار كعلوم ومذاهب وأفكار فى التاريخ والتراث الحضارى العربى والإسلامى لهذا السبب، بينما نسى أو غمرا البعد الإجتماعى الذى يشكل الخلفية الحقيقية لتلك الإتجاهات والأساس الأول لوقائعها فى حياة الدولة والمجتمع العربى والإسلامى وفى حياة أى مجتمع من المجتمعات قديمة كانت أم حديثة.

الوقائع العملية للخط الإجتماعى الثورى وظروفه

لقد تمثل الخط للراديكالى الثورى فى مجموعة من الأحداث والوقائع التاريخية والإجتماعية التى حظيت بالممارسة والتفسير والمعالجة المباشرة للأحداث والظروف وأساليب التفكير والسلوك من منظور إجتماعى واقتصادى إلى حد ما، دون اللجوء كثيراً إلى تقمص المداخل الأخرى دينية كانت أم أدبية. كالمذهب الفكرى والعقلى عند المعتزلة والسياسى والتطبيقى عند الخوارج والقرامطة، فى تنظيم الدولة والمجتمع، حيث تمكنت هاتان الفئتان من إقامة مجتمعات ودول فى مجموعة من الأقاليم والاستقلال بها عن سطلة دولة الخلافة المركزية، من وقت لآخر أموية كانت أم عباسية، وذلك فى أقاليم البحرين واليمن بالنسبة للقرامطة وبلاد المغرب وعمان بالنسبة للخوارج. التى لم يكونوا يعترفون فيها بأى شكل من أشكال التمييز والمفاضلة بين فئة اجتماعية وأخرى لأى سبب من الأسباب. حيث يذكر الدكتور محمود إسماعيل بأن تركيب دولة الخوارج الصفرية التى أقاموها فى الجهات الجنوبية الغربية من بلاد المغرب والتى عرفت بدولة بنى مدرار وعاصمتها « سجلماسة » والتى أسسها وتولى أمرها « رجل زنجى يدعى عيسى بن يزيد الأسود » لهو أمر بالغ الدلالة على إخلاص الخوارج والتزامهم بفكرهم السياسى الديمقراطى نظريا وعمليا؛ وكذلك دول الخوارج الأباضية التى أقاموها فى عمان وبلاد المغرب (جنوب ليبيا) والتى أسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسى مابين عامى ١٦٣ - ٢٩٧ هـ [1] ذلك لأن فكر الخوارج السياسى كما يقول الدكتور محمود إسماعيل أيضا — قوامه المساواة

---

(١) د. محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام مؤسسة روزاليوسف ١٩٧٣، ص ٣٦ إلى ٣٩.

بين كافة العناصر والأجناس دون تفرقة أو تمايز ، وأن انتشار مذهب الخوارج فى بلاد المغرب أحدث إنقلابا فى موازين القوى الإجتماعية هناك ، إذ هوت بعض العناصر التى كانت تحتكر السلطة السياسية وصعدت عناصر كانت مغلوبة على أمرها لتقف على قدم المساواة مع القوى الأخرى ونالت حظها فى بعض الأحيان فى قيادة الثورات وتولى مقاليد الحكم والسياسة (١) .

أما دولة أو جمهورية القرامطة فى البحرين كما يسميها « بندلى جوزى » فقد كانت أعظم شأنا وأبعد مدى فى تعاليمها ونظمها الإجتماعية ذات الطابع الجماعى والأشتراكى الواضح ، والمفاهيم العقلية والعملية البحتة التى استمرت ما يقرب من خمسمأة سنة(٢). وكذلك الحركة البابكية فى خراسان وبلاد ماوراء وشمال نهر دجلة والفرات (٣) . وحركة الزنج وعلوج الأرض والذين كان دورهم فى ثورة إبن الأشعث ضد الحكم الأموى فى عهد عبد الملك بن مروان وعامله فى بغداد الحجاج بن يوسف الثقفى من القرائن الدالة على لبرالية وعقلانية هذه الحركات الثورية فى مقاومتها للسلطة الأموية بمضمون اجتماعى (٤) . وكذلك ثورة الجهم بن صفوان والحارث بن شريح فى خراسان التى لم تكن مجرد ثورة عنصرية قام فيها الصراع بين العرب والفرس ، بل لقد ضمت بين صفوفها الطبقات المستضعفة من العنصرين معا فى مواجهة الارستقراطية العربية فى خراسان ومن دار فى فلكها من الارستقراطية الفارسية(٥). والمعروف أن الجهم بن صفوان والحارث بن شريح هما من مؤسسى المذهب الأرجائى الثورى فى خراسان (٦) . كل هذه الظواهر

---

(١) د . محمود اسماعيل : الخوارج فى المغرب الاسلامى دار العودة بيروت ١٩٧٦ ص ٢١٣ .

(٢) بندلى جوزى : « من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٧٨ وما بعدها .

(٤) د . أدونيس : الثابت والمتحول الجزء الثانى ص ٦٤ وما بعدها .

(٥) الحركات السرية فى الاسلام ص ٦٦ .

(٦) لقد بدأ هذا المذهب بنزعة معتدلة ثم عمل لصالح السلطة الأموية فى أوج قوتها وفى أواخر أيامها ، وانتشر هذا المذهب فى أوساط الموالى فتغير موقفه إلى جانب الاتجاهات الثورية الأخرى من شيعة وخوارج وغيرهم راجع فى ذلك د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية ص ١٦٣ إلى ١٧٥ .

والأحداث التاريخية بكل مدلولاتها العقلية والاجتماعية ذات الميول والملامح الجماعية والاشتراكية الواضحة إلى حد كبير تتبلور فى اتجاه مضاد بالنسبة إلى مختلف الإتجاهات الدينية والسياسية الأخرى ومذاهب السلطة الرسمية التى مالت بالتدرج إلى الجمود والتزمت واللاعقلانية .

وقائع الصراع النظرى

وإذا ما أضفنا إلى الوقائع والأحداث التاريخية والإجتماعية الثورية السابقة مسار التفكير النظرى والعقلى والعلمانى المتحرر أيضاً للمعتزلة والشيعة الاسماعيلية المبكرة وبعض الفلاسفة الإجتماعيين كابن خلدون والعقليين كابن رشد لادركنا التكامل البنائى الرائع لإمكانية توفير المدخل الإجتماعى لدراسة هذه الأحداث وغيرها من وقائع التاريخ والتراث العربى الإسلامى عامة وتكوين نظرية إجتماعية عربية فى دراسة التاريخ والتراث منذ زمن بعيد .

لكنه حتى هذا المدخل الإجتماعى النظرى والعقلى الواضح فى التاريخ والتراث العربى المتمثل فى فلسفة الاعتزال وفرق الشيعة المبكرة وآراء وأعمال المفكرين والفلاسفة الآخرين كابن خلدون وابن رشد والفارابى والراوندى وابن سيناء وغيرهم قد تعرض لأنواع وأشكال مختلفة من النكسات المباشرة والغير مباشرة ، حيث تعرض للاضطهاد والقهر السياسى المباشر من قبل السلطة السياسية سواء كانت أموية أو عباسية أو فاطمية ، لأنه كان يمثل استفزازا لها وتهديداً لمصالح الطبقات الارستقراطية الحاكمة فيها ، وقد رافق هذا القهر والتنكيل السياسى محاولة مسخ وتشويه أيديولوجى وعقائدى معزز بأطر ومذاهب سياسية ودينية معينة كالمالكية والحنبلية والشافعية والحنفية وهى مذاهب السلطة السياسية عبر مراحل التاريخ الإسلامى وحتى اليوم[١] والتى كانت وما تزال قادرة على التعايش مع أى شكل من أشكال السلطة ومع أى شكل من أشكال التنظيم الإقتصادى والإجتماعى اليمينى المحافظ ومنحة التبريرات الدينية اللازمة لبقائه ، وهى تنطوى فى مجموعها تحت فكرة « أهل السنة والحديث » الذين يميلون إلى الرواية والإسناد

(١) راجع د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية ص ٢٥٧ .

كل شيء ويحجمون عن الاجتهاد والقياس أو التفسير بالرأى والاستنباط العقلى ، فقد كان الارتباط وثيقاً بين الإتجاه العقلانى وعداء السلطة التيوقراطية المحافظة ومذاهبها ، لذلك لم تحظ أفكار الاعتزال (وهم رواد النظر العقلى) برضى الخلافة السنية ، فقد تبارى أهل الحديث — كما يذكر الدكتور محمود اسماعيل — فى إعدام وإحراق مئات المصنفات من الفكر الإعتزالى إبان محنة المعتزلة فى عصر المتوكل تقرباً إلى الله . . . ! ! ونكاية فى خصومهم [١] . فساعدت هذه المذاهب الدينية السائدة بالتعاون مع السلطة على تشويه هذا الإتجاه ووصفه بالكفر والزندقة . . . الخ ، وأوغلوا فى التنكيل بكل من ينتمى إليه وأحرقوا كل ما كتب عنه ووقع فى أيديهم وكل ما استطاعوا الوصول إليه من مئات وآلاف المصنفات القيمة ، حتى أنه لم يبق من مصنفات بعض هذه الفرق والمذاهب السياسية والإجتماعية فى الإسلام كالخوارج والقرامطة والإسماعيلية والمعتزلة إلا ما كتبه عنهم خصومهم فى حينه وحتى الآن .

ولقد كانت أراء وأفكار الإمام الغزالى وعهده هو أعظم تجسيد لطابع تلك العلاقة المتناقضة والمتصارعة بين الإتجاهات الإجتماعية الراديكالية والعقلانية التى تحاربها السلطة ، وبين الاتجاهات السلفية المحافظة والمعادية لعقلنة الحياة وفهمها وتغييرها على هذا الأساس ، بتأييد من السلطة الحاكمة ، حيث يذكر أحمد عباس صالح فى كتابه « اليمين واليسار فى الإسلام » بأن الغزالى قد اعتبر « حجة الإسلام » وأستمر بتأثيره حتى العصور الحديثة وقبل سيادة المنهج العلمى فى البحث وهو — كما يقول — أستاذ أرستقراطى النزعة وأول مفكر إسلامى تصدى للفلسفة ليهدمها ، وقد لاقا تأييداً من السلطات القائمة فى عصره ، بينما أحرقت كتب ابن رشد (وهو معتزلى النزعة) فى الميادين بأمر السلطان وصودرت خزائنها وأمر بمعاقبة من يوجد لديه

---

(١) الحركات السرية فى الاسلام ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، وانظر فى ذلك أيضاً أقوال الجاحظ « وهو من مؤسس المعتزلة » فى أهل الحديث فى كتاب التفكير الاجتماعى للدكتور أحمد الخشاب ص ٢٠٥ .

كتاب لابن رشد ولم يقدمه فى الاحتفال المهيب الذى أحرقت فيه كتب هذا الفليسوف العظيم (١) . وحتى وإن كانت ما تزال هناك بقية من تراث هذه الجماعات فى بعض المناطق فهو ما يزال ضمن دوائر سرية إجتماعية جداً كما تفعل الآن بعض فرق الشيعة فى العراق والإسماعيلية فى الهند واليمن وسوريا والخوارج فى بلاد المغرب . (٢)

لقد كان يحدث كل ذلك بالرغم من أن الإطار الدينى أو على الأصح المنطلق الدينى للصراع السياسى والإجتماعى لم يكن حكراً على جماعة السلطة ومذاهبها وحدهم ، بل على العكس من ذلك فقد كان لهذه الفرق والجماعات التى شكلت التيار الثورى والراديكالى المعارض ببعده النظرى والعملى ، من شيعة مبكرة ومعتزلة وقرامطة وغيرهم ، كانت لهم مصالحهم ومواقفهم الإجتماعية والسياسية والفكرية والتى عبرو عنها بأساليب ومذاهب دينية أيضاً لا تقل أهمية ونضجاً عن مذاهب خصومهم ، إن لم تكن هى فى الحقيقة أكثر تقدماً ونضجاً واستجابة لمنطق العقل وحقائق الواقع الإجتماعية والتاريخية ، ولنقاوة الدعوة الأسلامية الصحيحة ، فهناك — كما يؤكد الدكتور محمود إسماعيل — تياران أساسيان : أحدهما عقلانى هيومانى يتبناه المعتزلة رواد النظر العقلى فى الإسلام ثم تطور على أيدى الفلاسفة كالكندى والفارابى وابن رشد : أما التيار السلفى الرجعى فقد مثله الأشاعرة والحنابلة ووصل إلى ذروته على يد الغزالى ، وتصارع الإتجاهان صراعاً مريراً لم يكن محض خلاف فكرى مذهبى بقدر ما كان تعبيراً عن مواقف سياسية وقضايا اجتماعية(٣) .

إلا أن اختلال الميزان السياسى بأستمرار لمصلحة الاتجاه السلفى المحافظ قد مكن له من البروز وممارسة أنواع القمع والاضطهاد الفكرى والدينى ضد هذه الجماعات والتيارات الوطنية الراديكاليةوالثورية الذى لم يتوقف عند حد القتل والنفى والتكفير ، بل وصل — كما سبق القول — إلى حد القيام

---

(١) أحمد عباس صالح : اليمين واليسار فى الاسلام المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ، ص ١٩٧٢ م . ص ١١ .

(٢) الحركات السرية فى الاسلام ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

بحرق ومصادرة وإعدام كل ما قالوه أو كتبوه ، وتلك هي النكسة الخطرة التي تعرض بسببها جانب كبير وأساسي من التراث الفكري والاجتماعي والديني الرائع للضياع المحقق ، ولهذا السبب نفسه أيضا ظل الاتجاه الأول الأكثر محافظة ورجعية وتعصب ينمو ويتطور باعتباره الممثل الشرعي الوحيد للقيم والاخلاقيات الدينية والاجتماعية والسياسية في التراث الحضاري بعامة حتى يومنا هذا ، بينما ظلت الاتجاهات الأخرى الأكثر ثورية وراديكالية وعقلانية وما تزال عرضة للتشويه والتشهير والتحريف غير المنصف ، وغمرت بذلك وحتى الآن صفحة مشرقة من أنصع صفحات التاريخ الحضاري العربي والإسلامي . ونحن في الوقت الحاضر في أمس الحاجة إلى ضرورة فتح هذه الصفحة وقراءتها على حقيقتها من جديد ، هذه الصفحة وهذا المسار الفكري والاجتماعي المتحرر التي كان انطوائها « في تقديرنا » هو السبب الأول والأساسي في انطواء صفحة الحضارة العربية المزدهرة بكاملها واستسلامها للضياع والأفكار الضيقة والعقيمة حتى اليوم[١] .

ومن الملاحظ بصورة عامة أنه بينما كان الاتجاه اليميني المحافظ ممثلا في السلطة الأموية ومن بعدها العباسية يتحرك بدوافع اقتصادية ومصالح مادية وسياسية مباشرة كانت قيادة الاتجاه اللبرالي اليساري المبكرة بقيادة علي وبنيه تتحرك بدوافع مثالية أكثر منها اقتصادية وسياسية مباشرة[٢] . ولقد كان هذا المنطلق الرومانسي هو أشد نقاط الضعف في تلك القيادة المبكرة والذي أودى بها في النهاية ، وأفقد اليسار الثوري روح المبادرة وجره إلى الفرقة والتمزق فيما بعد وتعدد الإجتهادات مما يسر للطرف الأخر حسم الموقف السياسي لصالحه بعد وفاة علي بل وفي حياته على يد معاوية وملاحقه خصومه من بعده من موقع السلطة .

وحتى تتجلى الصورة بشكل أوضح عن هذا البعد الاجتماعي المغمور والمشوه في التاريخ والتراث العربي سوف نقوم باستعراض أهم مظاهرة

---

(١) أنظر الدكتور أدونيس : الثابت والمتحول الجزء الثاني ص ٨٣ ، ٨٤ وما أورده الراوندي والرازي كمحلل عقلي للافكار والمفاهيم المشار إليها .

(٢) اليمين واليسار في الإسلام ص ١٤١ . وأنظر في ذلك أيضاً د . محمد عمارة الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية ، ص ١٥٥ و ١٥٦ .

وأبرزها من خلال الحديث التحليلى عن أهم المذاهب والفرق المكونة لهذا التيار والتعرف على طبيعة منشئها الاجتماعى ومبادئها الفكرية وتطبيقاتها العملية سياسياً واجتماعياً واقتصاديا .

مظاهر البعد الاجتماعى فى التاريخ والتراث العربى

ونستطيع أن نحدد المعالم الرئيسية للبعد الاجتماعى فى تفكير هذه الخطوط والاتجاهات الفكرية اللبرالية والعلمانية فى التاريخ والتراث العربى بصورة موجزة ، وإدراك أهمية وقدرة البعد النظرى والمنهجى للنظرية الاجتماعية الحديثة على تمثل الأحداث والمراحل التاريخية المختلفة والظواهر الاجتماعية تمثلا حديثا وموضوعياً وعلمياً والكشف عن طبيعة العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الكامنة وراء هذه الأحداث والظواهر المختلفة مهما كانت مظاهرها الخارجية والشكلية المقنعة بثوب دينى أو أدبى أو غيره ، وذلك من خلال استعراض وتحليل موجز لنشاط وأعمال وظروف أبرز هذه الخطوط والاتجاهات ممثلة فى أبرز مذاهبها وفرقها وأحزابها الرئيسية وهى الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة والإسماعيلية والقرامطة .

أولا — الشيعة منطلق الاتجاه الراديكالى الثورى بصفة عامة

تشكل الشيعة بزعامة على وبنوه الإطار العام لكل الاتجاهات اللبرالية والراديكالية المبكرة التى برزت فى مواجهة السلطة الأموية منذ وقت مبكر ، والبداية التى انطلقت منها وتفرعت من خلالها كل هذه الاتجاهات بصورة مباشرة وغير مباشرة ، فلقد كان على بحكم نشأته البسيطة وظروف تكوينه الاجتماعى والشخصى هو أقرب القادة الإسلاميين فى عصره إلى هذه الاتجاهات الثورية والراديكالية المتصلة بالسواد الأعظم من الناس والتعبير المناسب عن مثاليات الدين الإسلامى وأجدرهم جميعا بقيادتها ، لا لأحقيته فى الوراثة والنسب التى تقوقع الكثيرون حولها فيما بعد واعتبارها أساس القضية[1] وذلك فى

---

(١) اليمين واليسار فى الاسلام ص ١٤٤ .

مواجهة البيت الأموى وغيره من الفئات والطبقات التى فقدت أو تقلصت مصالحها السياسية والاقتصادية الضخمة ذات الطابع الاقطاعى والبرجوازى الواضح فى المجتمع المكى القديم بعد فتح مكة[١] . والتى بدأت تستعد لاسترجاعها منذ تولى عثمان بن عفان ، واكتمل لها ما أرادت بالفعل فى عهد معاوية الذى حسم الموقف سياسياً وعسكرياً واقتصادياً مع على وأتباعه لصالح البيت الأموى ، أو على الأصح مع التيار اللبرالى الشعبى فى عموم الدولة الإسلامية لصالح الفئات والطبقات الأوتوقراطية والأقطاعية وفى مقدمتها البيت الأموى[٢] .

والشئ الملاحظ والذى تؤكده الأحداث والوقائع بأنه كانت توجد هناك ثغرة خطيرة فى الصف اللبرالى المناضل بقيادة على ، ربما كانت هى السبب الأول والأساسى فى تصدعه وانهياره رغم كل عوامل القوة السياسية والاجتماعية والدينية التى كان يتمتع بها وتعدد مسارات هذا الاتجاه فيما بعد ، وهى أن القيادة بزعامة على وبنوه كانت تدرك الأمور بصورة مغايرة لما تدركه القاعدة الواسعة من سواد الناس الذين يقفون ورائها باستماته ، فبينما كانت هذه القاعدة الواسعة والعناصر المستنيرة فيها تحاكم الأمور بمفهوم موضوعى سياسى واجتماعى واقتصادى واضح كانت القيادة وبعض أنصارها واقعة فى أسر المفاهيم المثالية الزائفة والرومانسية البعيدة عن تمثل ظروف الواقع ووضع حسابها ضمن عملية الصراع ، من ذلك مثلا النظر إلى الخلافة باعتبارها حق إلهى لهذه القيادة لا يحتاجون معه إلى أى سند أو مبرر اجتماعى ، وإلى ما يفعلة البيت الأموى باعتباره كفراً وتعدياً على هذا الحق وخروجاً على مفاهيم الدين المثالية[٣] وهذا يعى أن الأمامه ليست « قضية مصلحية تناط باختيار العامة بل هى قضية أصولية »[٤]

ولقد كانت قصة الخوارج أثناء حربهم فى موقعة « صفين » تحت قيادة على ضد معاوية الذى قبل بالصلح (أى على) وهو على وشك أن يحسم

---

(١) اليمين واليسار فى الاسلام ص ١٧ إلى ٣١ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٦ ، ٧٨ وما بعدها .
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٤١ .
(٤) أنظر دكتور أدونيى : الثابت والمتحول ، دار العودة بيروت ، جـ١ ص ١٩٧ .

المرقف عسكرياً لصالحه وأحس معاوية بأنه على وشك أن يخسر الموقعة نهائياً فأمر أصحابه برفع المصاحف فى وجه جند على وطلب الاحتكام إليها مع إيقاف القتال ، فبينما فهم أتباع على المدركون للخديعة ممن سموا فيما بعد بالخوارج هذه الخدعة من معاوية ورفضوها تأثر بها على مع بعض أنصاره برومانسيتهم ومثاليتهم الطيبة ، فأوقفوا القتال رغم إصرار الخوارج على عدم التوقف وتحذيرهم من نتائج هذه الخدعة السياسية ، حيث انتهى الموقف بالفعل فيما بعد بمهزلة التحكيم المعروفة التى رتبها الأشاعرة بطريقة خدعة دبلوماسية بارعة لصالح معاوية والتى قوت الشرعية لمعاوية فى الحكم وأضعفت حق على فى المطالبة به ، وخروج الكثير من أتباع على عن هذا الموقف ومعارضتهم ورفضهم له سموا « بالخوارج » والروافض[١] .

وعن هذا الموقف وما بعده تعددت فيما بعد الأراء والمذاهب والأحزاب اللبرالية والعقلانية المختلفة وتطورت فى اتجاهات أفضل رغم قسوة ما عانته من ظروف ، بينما ظل الخط المثالى والمغرق فى الرومانسية والمثالية الذى بدأه على وبنوه يشق طريقه هو الآخر ويتطور ولكن فى اتجاه أكثر رومانسية ورداءة وتحريفية لموقف على وأراءه نفسها ، من حيث تحول هذا الخط إلى مجموعة من المفاهيم الخرافية والأسطورية المغرقة فى التظليل والمجافية لأدنى حدود العقل والعلم والمنطق ، وإلى مجموعة من العقد والأمراض النفسية والباثيولوجية فى المجتمع ، وهم ممن يعرفون حتى اليوم بفرق الشيعة الإمامية ، كأسطورة المهدى المنتظر الذى يعتقدون بأنه يعيش فى سرداب خفى منذ أكثر من ألف عام ، وأنه سيخرج يوماً ليملاء الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً ، والقول بخطأ فكرة نزول الرسالة والوحى على محمد بدلا من على كما كان مفروضا ، والخطأ يرجع فى ذلك إلى « جبريل » الذى أخطأ فى توصيل الرسالة والوحى إلى غير صاحبها ، وهذا ما تقوله بعض فرق الشيعة الإمامية كالذمية والعباثية والمغيرة والمنصورية ، وأن علياً ما يزال حياً فى السحاب وأن البرق سيفه والرعد صوته ، إلى غير ذلك من الأفكار الخرافية والمسالك الفردية والجماعية

---

(١) د . محمود اسماعيل : الحركات السرية فى الاسلام ص ١٨ إلى ٣١ .

الشاذة التى من السهل ملاحظتها فى حياة هذه الجماعات حتى اليوم بوضوح ، وبالذات فى العراق وإيران ، وباكستان ، يضاف إلى ذلك القول بعصمة الإمام من الخطأ وأنه فوق مستوى البشر وفى مصاف الأنبياء والملائكة المنزهين ، وعدم جواز الأمامة إلا فى ذرية على ، وأن الزمان والدهر لا تنتظم شئونه إلا بوجود إمام للزمان سواء أن كان هذا الإمام ظاهراً أو مختفياً ، فهو الحاكم الحقيقى الذى لا يجوز الخروج عليه أو محاسبته(١) .

يضاف إلى ذلك أيضاً ما أفرزه هذا الاتجاه بمرور الوقت من مشكلة ادعاء ورغبة الكثير من المتشيعين من جنسيات وقوميات مختلفة الانتساب إلى على نظراً لما يترتب على مثل هذا الأمر من مكاسب اعتبارية وسياسية أهمها حق الوصول إلى السلطة والاستعلاء على الآخرين مما أدى إلى كثير من الانقسامات الاجتماعية والطائفية الخطيرة فى المجتمع العربى حتى الآن ، وكذلك فى المجتمعات الإسلامية الأخرى كالهند وباكستان وإيران وبعض مجتمعات أفريقيا الإسلامية ، بالرغم من فساد هذه الفكرة علمياً وإجتماعياً وعدم صحتها شأنها شأن غيرها من الظواهر المرضية المماثلة فى المجتمعات والحضارات التاريخية والمجتمعات المختلفة والمرتبطة بقضايا التفرقة والتميز العنصرى والسلالى التى أثبت العلم الحديث فسادها وارتباطها أصلا بأهداف سياسية واجتماعية أكثر من أى شىء آخر(٢) .

وهم يشكلون بأفكارهم ومعتقداتهم ومسالكهم الشاذة هذه ما ينطبق عليه مصطلح الجيوب الحضارية والثقافية فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، حيث صاروا يمثلون أقليات من الدراويش الذين يمكن اعتبارهم الشيعة الحقيقيين فى الوقت الحاضر ، والامتداد الطبيعى والمشروعة لما قبلهم ، أما الاتجاهات

---

(١) اقرأ عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٧٣ والظر فى ذلك أيضاً كتاب الثابت والمتحول للدكتور « أدونيس » الجزء الأول دار العودة بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٤ ص ١٩٧ إلى ٢٠٣ .

(٢) راجع المجلة الاجتماعية القومية عدد خاص عن التفرقة والتميز العنصرى العدد الثالث سبتمبر ١٩٧١ القاهرة ، وانظر أيضاً مقال بعنوان « الجذور الاجتماعية والاقتصادية لأشكال التفرقة والتميز العنصرى والسلالى » مجلة الغد اليمنية ص ١٨ عدد سبتمبر ١٩٧٦ م .

الأخرى الأكثر لبرالية وعقلانية فقد شقت طريقها فى اتجاه أكثر نضجاً وموضوعية من خلال العديد من المذاهب والمدارس الفكرية والأحزاب السياسية والحركات والأحداث الثورية التاريخية رغم أن الكل ظل يربط بينهم قاسم مشترك رفيع هو فكرة التشيع التى لم تكن تعنى بالنسبة لبعض الجماعات والأحزاب اللبرالية والراديكالية الثورية داخل الدولة الإسلامية كالقرامطة والإسماعيلية والزيدية المبكرة أكثر من مجرد فكرة للمناورة السياسية ولا يترتب عليها أى التزامات محددة من أى نوع مما سبق ذكره وبالذات « القرامطة ».

ثانياً : الخوارج يسار الفكر السياسى

لقد جاءت هذه التسمية كما سبق القول بسبب خروجهم واختلافهم مع على فى واقعة « صفين » وقد عبروا بذلك عن أنفسهم كحزب سياسى أكثر ثورية وتطرف بالنسبة للسلطة الأموية ولعلى وأتباعه المعتدلين ، فإذا كانت سلطة معاوية تمثل أقصى اليمين وعلى اليسار المعتدل لهذا اليمين المتطرف فإن الخوارج بموقفهم ذاك قد شكلو اليسار المتطرف لليسار المعتدل ، بينما مثل تيار فكرى آخر هو تيار الفكر الإرجائى « المرجئة » حزب الوسط وسنتحدث عنهم بعد قليل ؛ ولقد برهن الخوارج على صدق اتجاههم الفكرى والعملى من خلال الإنتشار الواسع لحزبهم فى أوساط بسطاء الناس والسواد الأعظم من المجتمع داخل الدولة الإسلامية على اختلاف قومياتهم واجناسهم ومعتقداتهم ، لأنهم لم يكونوا ليرو أى فوارق اجتماعية بين جميع مواطى الدولة الإسلامية ، يترتب عليها فوارق وامتيازات فى الحقوق السياسية والاقتصاديه والاجتماعية بما فى ذلك عدم ربط حق الإمامة بعلى وبنيه وهى الفكرة التى يتمسك بها ويتعصب لها الكثير من المتشيعين والإمامية منهم بالذات ، على اختلاف مناهجم ، أو حتى بالعنصر العربى وحده ، ولقد كانت تطبيقاتهم السياسية والاجتماعية من خلال دولهم التى تمكنوا من إقامتها فى بلاد المغرب وبلاد عمان هى أعظم دليل على صدقهم وإخلاصهم لمبادئهم ، حيث قام بتأسيس الدولة الأولى — كما سبق القول — فى الجهات الجنوبية الغربية من بلاد المغرب وهى دولة بنى مدرار رجل زنجى يدعى عيسى ابن يزيد الأسود ، وقام بتأسيس الدولة الثانية ما بين عامى ١٦٢ ، ٢٩٧

رجل فارسى يدعى عبد الرحمن بن رستم[١] وطبقوا فى حياتهم الإخاء الحقيقى والمساواة السياسية والاجتماعية إضافة إلى حرية العقل والتفكير ومحاكمة الأمور من هذا المنطلق ، فقالوا شأنهم شأن المعتزلة والإسماعيلية بقدم العالم ومعارضة فكرة الخلق وحق الإنسان فى الحرية والاختيار للفعل وتأويل الأشياء وعدم أيقاف التفكير عند مظاهره الخارجية والشكلية[٢] .

وهم الذين قالوا أيضا : إذا لم يعدل الإمام فى الرعية ، ويقسم الفىء بالسوية ويعطى العطاء ، ويسوى بين الناس فى الأرزاق ، ويكفى العامة ، ويفدى الأسير ، ويجاهد العدو ، ويقيم لهم الحجة ، ولايستأثر دونهم بالفىء ، كان عاصيا ، وكل من رضى بإمامته كان عاصيا ، وقد أخذ عليهم خصومهم هذا الرأى من المذمات التى أخرجوهم بها عن حدود الإسلام أمثال الشافعى وابن حنبل وغيرهم من القائلين بوجوب طاعة الإمام وعدم الخروج عليه حتى لوكان ظالماً تجنباً للفتن[٣] .

ثالثاً ــ المرجئة حزب الوسط المتذبذب

وفى مقابل التيار الليبرالى المتشدد الذى قاده الخوارج ظهر تيار مضاد فى الصراع السياسى والطبقى وهو تيار الفكر « الإرجائى » والذى انبثقت تسميته من طبيعة مضمونه العقلى والفكرى الذى يقوم على فكرة إرجاء وتأجيل الأمور والقضايا المتعلقة بأفعال الخلق مهما كان خطؤها فى الوقت الحاضر إلى أجل غير محدود فى المستقبل ، وقد يمتد هذا الأجل إلى حياة مابعد الموت حيث يفصل بالحق والعدل فى كل شىء إذا لم تواتى فرصة لحل هذه الأمور والقضايا فى هذه الحياة الدنيا ، بما فى ذلك شئون الظلم والإجرام والبطش وارتكاب المحرمات والكبائر ، خصوصاً مايتعلق منها بعلاقة الحاكمين بالمحكومين .

وهذه الفكرة التى قام على أساسها الفكر الإرجائى ذات دلالة اجتماعية وسياسية بعيدة الغور والمغزى ، فقد أرادوا من خلالها التعايش مع طرفى

---

(١) دكتور محمود إسماعيل : الحركات السرية فى الإسلام ص ٣٦ ـ ٣٩ .

(٢) راجع تفاصيل أكثر د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الاحزاب الأسلامية ، ص ١٣٩ إلى ١٤٨ .

(٣) دكتورادونيس : أنظر الثابت والمتحول الجزء الثانى ص ٣٠ ، ٣١ .

الصراع من حولهم ، فهم من خلال هذا المنطلق الفكرى الأصيل فى موقفهم قد أرضوا اتجاه اليسار الراديكالى الثورى بكل مساراته من شيعة وخوارج ومعتزلة وغيرهم من المعارضين للسلطة بالإقرار بأن ماتفعله سلطة الدولة الأموية وما انبنت عليه منذ البداية ومايقترفه حكامها ضد الفئات الأخرى المعارضة يعتبر خطأ وغير مقبول اجتماعياً ودينياً. لكنهم لايوافقون فى الوقت نفسه على عمل أى شىء ضده فى الوقت الحاضر ويقولون بإرجائه إلى أجل غير محدد قد يمتد إلى « يوم القيامة » وهم بذلك قد خدموا السلطة الأموية خدمة كبيرة بتثبيط كل شكل من أشكال المقاومة والمعارضة الفعلية وشل حركتها ، محتفظين فى الوقت نفسه من خلال فكرهم هذا بمصالحهم الاقتصادية والاجتماعية كطبقة وسطى ليست لها مطالب جذرية شأن كل الطبقات والشرائح الاجتماعية الوسطية فى كل المجتمعات قديماً وحديثاً ، والتى ترغب دائماً فى التعايش والوقوف مع الأقوى حتى إذا مابدأ يضعف كانت هى أول من يتخلى عنه . ولقد كان المذهب الإرجائى كذلك كفكر وأيديولوجية للطبقة والشرائح الوسطية فى بداية الدولة الأموية ، حيث انحاز إلى جانبها أكثر فأكثر حينما قويت شوكتها وراح يبرر مواقفها ضد خصومها ، فبينما كان الخوارج ينادون بتكفير مرتكب « الكبيرة » وبصفة المعتزلة فى المنزلة بين المنزلتين أى بين الكفر والإيمان ، فلاهو بالكافر ولابالمؤمن وإنما اعتبر « فاسقاً » رأت المرجئة التوقف فى الحكم وإرجاء الأمر إلى الله ، وقالوا بأن الإيمان تصديق بالقول دون العمل ، وأن مادون الشرك مغفور والعبد إذا مات على توحيده لايضره مااقترف من الآثام واجترح من السيئات(١). يشاركهم فى ذلك أهل السنة والحديث ، حيث يرى الشافعى وابن حنبل وجوب طاعة الإمام وعدم الخروج عليه حتى لو كان ظالماً فاجراً وذلك تجنباً للفتن وإذا مات الخارج على الإمام مات ميتة جاهلية(٢) .

ولقد تغير هذا الموقف للمرجئة من مناصرة وتبرير السلطة الأموية إلى

---

(١) د . محمود اسماعيل : الحركات السريه فى الإسلام ، ص ٤٤ الى ٥٠ وينظر فى نفس الموضوع الخياط ص ١٦٥ والأشعرى فى مقالاته الاسلاميين ص ١٤١ .

(٢) د . دونيس : الثابت والمتحول ، الجزء الثانى ص ٣١ .

موقف المناوء لها حينما ضعفت فى أخريات أيامها بل وساهم فى إسقاطها بعد أن لاح فى الأفق قوة المعارضة بمختلف اتجاهاتها ، ولقد كان من أهم عوامل تحول المرجئة من موقف الوسط المتذبذب إلى موقف اليسار اللبرالى الثورى بلا رجعة هو — إلى جانب إمكانية ذلك باعتبارها أفكار فئة وسطية كما سبق القول — إنتشار هذا المذهب بين الموالى وبسطاء الناس ، حيث يذكر الدكتور محمود إسماعيل بأنه ما كان للإرجاء أن يصبح مذهباً ثورياً إلا بعد أن اعتنقه الموالى ، ذلك أن الموالى قد انخرطوا فى أحزاب المعارضة لاكساب ثوراتهم شكلا شرعياً إستناداً إلى ركائز دينية ، فكانوا قسمة بين أحزاب المعارضة الثلاثة (الخوارج والشيعة والمرجئة أخيراً) وهكذا تطور حزب الوسط الإرجائى الذى بدأ معتدلا ثم انتهازياً مبرراً للسلطة إلى مناوىء لها يدعو للإصلاح ثم انتهى به المطاف إلى أن صار حزباً ثورياً قحاً مثل سائر أحزاب اليسار ، أسهم بدور كبير فى إسقاط حزب اليمين الأموى الذى أجهزت عليه الثورة العباسية وهذه هى حقيقة فكر الوسط دائماً يجارى يحارى ولا يقاوم .

فقد كانت ثورة الجهم بن صفوان والحارث بن شريح فى خراسان وهما من مؤسسى المذهب الإرجائى الثورى هناك ثورة شعبية ولم تكن ثورة عنصرية يقوم فيها الصراع بين العرب والفرس ولكنها — كما يؤكد الدكتور محمود إسماعيل — ضمت الطبقات المستضعفة من العنصرين معا فى مواجهة الأرستقراطية العربية فى خراسان ومن دار فى فلكها من الأرستقراطية الفارسية القديمة(١) .

والذى نستطيع أن نؤكده أيضاً إضافة إلى ماسبق هو أن عملية التغيير والإنتقال بمواقف المرجئة هذه عبر كل تلك المواقف وما انتهت إليه هو أنه لم يكن إنتقال فى الموقف والرأى فحسب بقدر ما كان انتقال فى الشريحة والطبقة الاجتماعية الذى نجم عنه إنتقال جذرى فى الفكر والممارسة أيضا ، فانتقال الفكر الإرجائى إلى فئات الموالى وسواد المجتمع أو دخول هؤلاء فيه على الأصح هو الذى أدى إلى تغييره وتحوله جذريا من فكرة ومذهب للطبقة الوسطى

---

(١) الحركات الإسلامية فى الإسلام ، ص ٥٦ — ٦٦ ، ٧١ .

المتذبذبة والانتهازية إلى فكر ومذهب للطبقات الإجتماعية الفقيرة والمسحوقة فى المجتمع ومعبر عن ظروفها ومصالحها السياسية والاقتصادية شأن بقية أحزاب اليسار الأخرى .

وبينما أخذ الفكر الأرجائى فى التحول فى هذا الاتجاه إنبثق عنه فى الوقت نفسه مواقف واتجاهات أخرى احتفظت بنفس الموقف التقليدى بل وزادت عليه فى تعصبها ودفاعها عن السلطة الأموية وعن مصالح الطبقة الوسطى والعليا المرتبطة مصيرياً بهذه السلطة ، وهم الذين عرفوا « بالمجبرة » ومنهم «الجهمية » أساس الفكر الأرجائى الجبرى فى الإسلام و « القطعية » و « النجارية » و « الضرارية » و « الحفصية » و « الراوندية » أهل الأثر وأصحاب الحديث و « الأشعرية » وهم المجبرة المتوسطون ومنهم الغزالى (١) وأساس فكرة الجبر والإلزام هذه كما يقول محمد عمارة عند أئمتهم هى أن المطلوب إنما هو إضافة الأعمال والأحوال ، أعمال الإنسان وأحواله إلى الله وأن يتبرأ الإنسان من نسبتها لنفسه وأن يعتقد عدم ملكيته لها وبانتفاء سلطانه عليها ، وهذا هو عين رأى المجبرة.(٢)ولهذا الرأى دلالته السياسية والاجتماعية الأكثر يمينية وخطورة ، فالمجبرة بمختلف فرقها بهذا المفهوم كانت تمثل مذهب التبرير المطلق لتصرفات الدولة الأموية وحكامها وأن كل ما يصدر عن حكام السلطة لا يصدر عنهم بمحض إختيارهم ، وإنما هم مجبولون علية بتقدير من الله سبحانه وتعالى وأفعالهم منسوبة إليه لا إليهم فهى جزء من أحكام القدر التى لا دخل لهم بها ولن يحاسبوا عليها وفقا لمبدئهم الأساسى بأن الإنسان « مسير لا مخير » وهو المبدأ الذى دارت حوله المجالادت الطويلة والصراعات المريرة ممن يقولون به أمثال هؤلاء وممن يرفضونه ويؤكدون بأن الإنسان « مخير لا مسير » من أصحاب الموقف المضاد كالمعتزلة والشيعة المبكرة على اختلاف نزعاتها .

وفكرة « الجبر » هذه هى فكرة قديمة سابقة على ظهور الإسلام وأن

---

(١) د . محمد عمارة المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ص٢٨ وما بعدها ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت الطبعة الأولى ١٩٧٢ م .

(٢) د . محمد عمارة : المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية ، ص ٤٢ .

فكرة « الإختيار » التى ظهرت بعد الإسلام ومن خلال مبادئه قد جاءت لتناهض جبرية العرب قبل الإسلام ثم طرأ وضع سياسى جديد فى عهد معاوية جعل الفكر الجبرى يعود إلى الإنتعاش والانتشار من جديد كما أن المعتزلة وهم قادة النظر والتحليل العقلى فى الإسلام بلا منازع قد ربطوا باستمرار بين نظرية « الجبر » وبين السلطة الأموية ورأوا بأن لهذه الأفكار الجبرية أبعاداً سياسية فى المجتمع بل لقد اتهموا معاوية بأنه أول من أشاع هذا اللون من الفكر حتى يدعم سلطته . (١)

رابعاً ــ الاسماعيلية : جوهر الفكر اللبرالى الدينى الناضج

إذا كان فى إمكاننا الآن وعلى ضوء ما سبق أن نحكم بأن الخوارج قد ابتعدت عن الشيعة كثيراً وتحولوا إلى حزب سياسى محترف إن جاز هذا التعبير شأنهم شأن المجبرة والمرجئة مع مراعاة الفوارق الجوهرية فى المنطلق والغاية ، وأن الخط المثالى الرومانسى لقيادة على وبنيه قد تطور فى تجاه منحرف عن موقف على نفسه وأكثر رومانسية وإغراقاً فى الخيال والخرافة والأساطير والتعصب على يد غلاة الشيعة الأمامية اللاحقة ، فإنه يمكن القول بأن الاسماعيلية كانت هى أقدر الفرق والمذاهب الفكرية على الاحتفاظ بجوهر فكر الموقف الشيعى اللبرالى المبكر لعلى وتطويره فى الاتجاه الأفضل وإعطائه الأبعاد الفكرية والفلسفية المتعمقة والملامح الاجتماعية والسياسية البارزة والمحددة ، الأمر الذى يؤكده « بندلى جوزى » بالنسبة لطبيعة منشأ وتطور هذا الاتجاه ، حيث يذكر بأن نشأة الحركة الإسماعيلية وأكثر الحركات الاشتراكية واليسارية والأدبية التى هزت العالم الإسلامى هزات عنيفة وزلزلت أرضه وسمائه هى الشيعة العلوية ، وقد سميت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام السابع من أئمة الشيعة وهو إسماعيل ابن جعفر الصادق (٢) .

---

(١) راجع بصفة عامة د . محمد عمارة : الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية ، ص ١٦٣ إلى : ١٧٥ ، وبالذات ص ١٧٤ .

(٢) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ، دار الروائع بيروت ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

ولقد شكلت الإسماعيلية تنظيما سياسياً واجتماعياً بالغ السرية والتعقيد والدقة من ناحية وعميق الفكرة الفلسفية والرؤية السياسية والاجتماعية من ناحية أخرى ، شديد الجرءة والتحدى من ناحية ثالثة . ومن أبرز مبادىء هذا التنظيم أنه قد قام بنشر دعوته وأفكاره السياسية والاجتماعية بين مختلف الطوائف الاجتماعية البسيطة على اختلاف جنسياتها ومعتقداتها الدينية من مسلمين وغير مسلمين ممن تضمهم مصلحة اقتصادية واجتماعية وسياسية مشتركة فى نطاق الدولة الإسلامية وخارجها ، وآمنوا بإمكانية تعايش المعتقدات الدينية المختلفة وضرورة تعاونها فى سبيل تحقيق أهداف اجتماعية واقتصادية مشتركة تقوم على أساس الأخاء الإنسانى الحقيق والمساواة التامة (١) . ورفضوا التفسير الظاهرى للأشياء وأخضعوها للتأويل والتحليل العقلى المجرد ؛ بما فى ذلك القرآن نفسه . وهم بذلك كما يقول « بندلى جوزى » أول بدعة فى الإسلام يجوز أن يطلق على أصحابها إسم « العقليين » من رجال الدين كما نادوا بمساواة الرجل بالمرأة وإبطال ملكية الأراضى وتوزيعها على المحتاجين إليها مجاناً . (٢)

وبالرغم من أنهم قد عانوا من أنواع القهر والاضطهاد وصنوف التشويه والتشهير والتكفير المغرض والمقصود من خصومهم والمعادين لأفكارهم ومبادئهم من أهل السنة والحديث ومذاهب السلطة المختلفة ووصفهم بما لايمكن أن يصدقه عقل من المذمات الخلقية كالإباحية وإبطان الكفر وإحلال نكاح البنات والأخوات وغير ذلك مما رواه أبو منصور البغدادى فى كتاب « الفرق بين الفرق » (٣) وكذلك الحمادى فى كتابه عن القرامطة والإسماعيلية

---

(١) د . أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعى ، دار المعارف المصرية ١٩٧٠ م ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩ . بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ، ص ١٣٩ .

(٣) الفرق بين الفرق لأبى منصور البغدادى ص ٢٨١ ، ٢٩٠ (نقلا عن المرجع السابق).

فى اليمن والبحرين [١] . وغيرهم من المتحاملين عليهم حتى اليوم ، إلا أن آرائهم لا تدل على الصفات الحقيقية للإسماعيلية بقدر ما تدل على حدة الصراع السياسى والاجتماعى الكامن وراء كل هذه المظاهر المقنعة ، بالرغم من كل ذلك فإن آرائهم الفكرية والفلسفية والاجتماعية الناضجة قد تركت بصماتها وآثارها الواضحة بشهادة كل الباحثين المنصفين فى العصور الحديثة ، ليس فى رأى معتنقيها ومناصريها فحسب وإنما فى مختلف مسارات واتجاهات التفكير الإجتماعى والفلسفى والإنسانى عامة ، ليس على النطاق العربى والإسلامى فحسب بل وعلى نطاق التفكير الأوربى والمسيحى والبوذى أيضاً وحتى الآن .

فالفلسفة تدين لهم برسائل « إخوان الصفاء » وهى أول دائرة للعلوم والمعارف فى العالم كما يؤكد « بندلى جوزى » حيث مهدوا بذلك لأفكار الفلاسفة كالفارابى وابن سينا وغيرهم ، والتى تشكل آراء وأفكار الإسماعيلية الجذور الحقيقية لهذه الفلسفة ، يضاف إلى ذلك الآراء والنظريات المبتكرة التى تضمنتها الرواية الشهيرة « حى بن يقضان » لابن طفيل [٢] ، والأفكار الجريئة للمتصوفة الناضجين كالحلاج وابن عربى . [٣] وكذلك بعض الجماعات والأخويات الصوفية كالنقشبندية والرفاعية والبكداشية لها أصول إسماعيلية رغم ما تعرضت له من التحريف من أخويات اجتماعية وسياسية عقلانية فلسفية إلى أعمال درويشية خالية من أى مضمون موضوعى . [٤]

---

(١) القرامطة : للحامدى أحد فقهاء اليمن فى القرن الخامس الهجرى وهو من أهل السنة والحديث تحدث بتعصب عن قرامطة واسماعيلية اليمن والبحرين . الكتاب فى دار الكتب بصنعاء .

(٢) د . أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعى ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

(٣) د . محمود قاسم : محيى الدين بن عربى ، مكتبة القاهرة الحديثة الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ م ص ١١٢ .

(٤) د . أحمد الخشاب : التفكير الاجتماعى ص ٢١٢ وما بعدها .

ويذكر « بندلى جوزى » عن تأثير أفكار وتنظيمات الإسماعيلية على غير المسلمين من مسيحيين وغيرهم واقتباسهم لأنظمتهم وأفكارهم ما نصه : « نحن لا نرتاب فى صحة هذا الفكر كما إننا لا نرتاب اليوم فى صحة فكر آخر وهو أن تأثير المبادىء الإسماعيلية الباطنية لم ينحصر فى المجتمع الإسلامى والشرق على الإطلاق بل تعداه إلى أوروبا وبعض الأمم المسيحية ، وهناك ترك أثرا بيناً فى حياة تلك الأمم الفكرية وأنظمتهم الاجتماعية ودساتير أديرتهم وجمعياتهم إلى غير ذلك مما لا يسعنا الوقت إلى التبسط فيه[١] .

---

(١) بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الاسلام ، ص ١٦٠ وما بعدها .